بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأنزل إليه الكتب السماوية لتأخذ بيده إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (القمر) والقائل : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (الإسراء) .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، الذى كان قرآنا يمشى على الأرض ، صلاة وسلاما عليه وعلى آله وصحبه الذين تعلموا القرآن وعملوا به ، فكانوا بذلك خير القرون ، ونالوا شرف الذكر والثناء فى قرآن يتلى إلى يوم يبعثون . اللهم وارض عن كل من اقتفى أثرهم وسلك طريقهم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الإنسان مهما اتخذ من التدابير واستخدم من الوسائل لفهم القرآن ، فإنه لا يصل إلى جوهر القرآن وروحه كما ينبغى ، ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرآن .

والقرآن لم يَحْوِ نظريات مجردة وأفكارًا محضة حتى ندرسه جالسين على الأريكة ، ثم نفهم جميع مطالبه !! كما أنه ليس بكتاب يبحث فى اللاهوت فتحلّ جميع أسراره ومكنوناته فى المعاهد والزوايا !!

كلا .. إنه كتاب دعوة وحركة، وبمجرد نزوله أخرج ـ كما يقول العلامة المودودى ـ رجلا وادعا دمثا ، سليم الفطرة ، كريم الشيم ، ومحبا للسكوت ، من زاوية الانعزال ، وأوقفه فى مواجهة العالم الذى كان قد انصرف عن الحق ، وجعله يقارع الباطل ، ويحارب أئمة الكفر ، وقادة الفسق ، ورواد الضلال .

إن هذا القرآن هو الذى قام بتوجيه حركة الجماعة المسلمة الهائلة خلال مدة ثلاث وعشرين سنة ، والتى بدأ عملها من صرخة فرد واحد ، وانتهت فى نهاية المطاف إلى إقامة الخلافة فى الأرض .. وهذا القرآن هو الذى تولّى مشاريع البناء فى كل مرحلة من المراحل، وفى كل خطوة من الخطوات خلال المعركة المديدة الضارية بين الحق والباطل .

إننا نؤكد على أنه لا نستطيع أن نفهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور إلا عندما نحكّم هذا القرآن ، ونبدأ بالدعوة إلى الله ، ونخطو جميع خطواتنا في هداه ، كما أنه ـ ووفقا لنفس المبدأ ـ لا يستطيع الإنسان أن يدرك مغزى أحكام القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته الاقتصادية والمدنية ، ومبادئه ونظمه فى مختلف مناحى الحياة ما دام لا يطبقها فى الحياة ، ولا يدرك مغزاها فرد يعيش فى حِلٍّ منها فى حياته الفردية ، ولا تدركه أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكا يخالف منهجها .

القرآن .. والتربية :

ويمكن القول : إن القرآن نزل كله للتربية والتوجيه لبناء الأمة الراشدة التى تقوم بمهمة الخلافة الراشدة فى الأرض ، ويربى النفس البشرية من جميع جوانبها ، وينفذ إليها من جميع منافذها ، مهما كانت مستوياتها النفسية والروحية والاجتماعية والحضارية، وأن كل مستوى من البشر يجد فيه حاجته ، ويجد انعكاس نفسه فيه كما ينظر فى المرآة ، ويتفاعل معه بقدر ما يفتح قلبه وبصيرته إليه .

وهو ـ أى القرآن ـ ينظر للحياة الإنسانية على أنها المجال الأنسب لعبادة الله تعالى وفق ما شرع ، ويعتبرها دار عمل واختبار ، من نجح فيها باتباع المنهج القرآنى حظى برضا الله تعالى ، ونال ثواب جنته فى الآخرة ، ولا تستقيم هذه الحياة الدنيا مع الإنسان لتحقيق سعادة الدارين إلا إذا ربّى الإنسان تربية قرآنية إسلامية صحيحة .

والذى يراجع عهد الدعوة الأول بشقيه ـ المكى والمدنى ـ يعلم كيف تربى الجيل الأول من مكونات المجتمع المسلم بالقرآن ، ويعلم علم اليقين أن ربهم الذى خلقهم أنزل على عبده ورسوله هذا القرآن ، أنزله من عنده ليربى هذا الجيل الذى سوف يكون النموذج القدوة الذى يُقصد عندما ينحرف المجتمع المسلم عن جادة الصواب ويتيه هنا وهناك ، سواء بأسباب هى من عمل يده أو خارجة عنه .

فالقرآن فى مكة كان فترة تربية وإعدادًا ، تربية بالعقيدة وإعداداً لحمل الأمانة الكبرى التى لم تحملها أمة أخرى من قبل ، وهى تحقيق منهج الله فى واقع الأرض .

وقد آتت التربية ثمارها بالفعل فى نفوس الفئة المختارة التى رباها على عينه رسول الله ﷺ خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة ، كانت لا إله لا الله قد تعمقت فى نفوسهم حتى أصبحت واقعهم الذى يعيشونه ، وزادهم الذى يتقوتون به .

كانت فترة التربية التى عاشوها فى مكة يطوف بهم القرآن فى آيات الله فى الكون ، فى الدقة المعجزة والضخامة المعجزة ، فى الحياة والموت ، فى عجائب الرزق ، فى تدبير الكون، فى علم الله الشامل للغيب ، فى قدرته التى لا تحدّ ، فى إملائه للكفار ثم تدميره عليهم ، فى مشاهد القيامة بنعيمها وعذابها ، وحشرها وحسابها .

ومن خلال التربية بالعقيدة كان يتم الإعداد لحمل الأمانة الكبرى ، وهل كان يمكن لها ـ قبل أن تتربى تلك التربية الفذة بلا إله إلا الله ـ أن تبقى على مستواها الرفيع ذلك حين تمكن فى الأرض ؟ ومن أين لها أن تعطى تلك النماذج الفريدة من الوفاء بالعهد ، ومن الصدق ، ومن معاملة الأمم المفتوحة معاملة أخلاقية لا تقوم على السلب والنهب والسيطرة والتحكم ، إنما تقوم على إعطاء النموذج المحبب الذى يقود ـ فى رفق ـ إلى التخلى عن الجاهلية الوثنية والدخول فى طاعة الله ، وكانت العقيدة هى الركيزة التى قام عليها البناء كله من خلال التربية القرآنية .

وكانت النقلة الثانية فى العهد المدنى من فترة الابتلاء والتمحيص ، والاستضعاف والتشريد ، إلى التمكين فى الأرض والاستخلاف . كما كان القرآن ـ وتعاليم الرسول ﷺ ـ هو أداة النقلة الأولى من الكفر إلى الإيمان ، فكذلك كان هو أداة النقلة الثانية إلى التمكين والاستخلاف .

وإذا كان ذلك كذلك،فلا بد أن لمنهج القرآن سمات فى التربية لأتباعه تختلف عن كل سمات المناهج الأرضية، حيث استطاع فى فترة وجيزة أن يربى هذه الأمة تربية استحقت أن توصف من خلالها بأنها خير أمة أخرجت للناس.

سمات منهج التربية فى القرآن :

هذا ، ولمنهج التربية فى القرآن سمات نشير إليها بإيجاز فيما يلى :

١ـ الربانية :

فالبشرية ـ وهى من صنع الله ـ لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ، ولا تعالج عللها وأمراضها إلا بالدواء الذى يخرج من يده ـ سبحانه ـ وقد جعل عز وجل فى منهجه وحده مفاتيح كل مغلق . وشفاء كل داء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء: ٨٢) ، ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء : ٩) . ولن تجد البشرية الرشد ولا الهدى ولا الراحة ولا السعادة إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى خالقها .

لقد تسلم الإسلام قيادة البشرية بعدما فسدت الأرض ، وأسنت الحياة ، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الروم: ٤١) ، تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن ، وبالتصور الجديد الذى جاء به القرآن ، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور ، فكان ذلك مولدا جديدا للإنسان أعظم فى حقيقته من المولد الذى كانت به نشأته .

فلقد أنشأ القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم، كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا ، كان يعز على خيالها تصوره ـ مجرد تصور ـ قبل أن ينشئه لها القرآن .

فلقد سقطت كل المناهج التى وضعها الإنسان لتربية الإنسان ، على مر الدهور والعصور ، أيام الرومان واليونان ثم عصور أوربا المظلمة ، وقريبا تلك المناهج القائمة على الاشتراكية أو الشيوعية أو ما شابه ذلك ، وسوف يظل منهج القرآن المتميز فى شكله وموضوعه هو القادر على إصلاح الناس ؛ لأن رب الناس ـ جل وعلا ـ هو أدرى بما يصلح عباده وخلقه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك) .

٢ ـ الشمولية والتكامل :

ولكل إنسان حياته الدنيوية ، وكذلك حياته الأخروية ـ باعتبار ما سوف يصير إليه ـ وهى ولا شك تحدد بما اكتسبه فى حياته الدنيا ، ومن رحمة الإسلام أنه لم يتركه سدى ، بل أوجب له ما يصلح هذه الحياة أو تلك ، فى حدود قدراته وإمكاناته ، ودون أن يسبب له إحراجا أو مشقة ، فالإنسان فى كل تصرفاته ، وحركاته وسكناته ، وكل ما يصدر عنه قد وضعت له التربية القرآنية ما يصلحه ، وما فيه سعادته فى دنياه وآخرته .

وإذا كانت هذه التربية من الشمولية لحياتى الإنسان ، فإنها كذلك ذات منهج متكامل فى كل مناحى الحياة ؛ اجتماعية ، أو سياسية أو اقتصادية ... وهذا التكامل إنما يحقق التوازن والانسجام بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه ، فلا صراع ولا عناد إنما هو الوئام ليس إلّا .

٣ ـ التوازن :

وإذا كان الإنسان يتكون من جسم وروح، ولكل منهما حاجاته ومتطلباته، فإن منهج التربية القرآنية قد راعى ذلك بشكل متوازن ، بحيث لا يطغى جانب على آخر ، فى ظل

الشرعية التى رسم الإسلام حدودها ووضع قواعدها بما يتناسب وتكريم الله - عز وجل- له : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠) .

وهذا التوازن إنما هو الاعتدال والوسطية التى ينبغى أن تتصف به الأمة القائدة الرائدة، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣) ، وكلمة (وسط) تحمل فى طياتها معان كثيرة ، فالوسط هو الأفضل وهو المعتدل وهو المتوسط بين الأطراف ، وكل هذه المعانى توفرت فى تلك الأمة القائدة الرائدة لتكون شهيدة على الناس ، يوم أن أخذت نفسها بالقرآن ، فطبيعة الإسلام هى التوازن والاعتدال بين مطالب الجسم والروح .

٤ ـ الإيجابية العملية :

كما أن منهج القرآن لا يكتفى بأن يتعلم الإنسان العلم ـ دينيا كان أو دنيويا ـ وحسبه ذلك ، وإنما طلب منه ترجمة هذا العلم إلى الواقع: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (الصف) . فكل من يتربى على منهج القرآن لا بد وأن يكون إيجابيا وفاعلا مع نفسه ، ومع مجتمعه . فلا بد أن يعمل العمل الصالح الذى يترجم به عن إيمانه ، فلا إيمان فى ظل التربية الإسلامية بغير عمل صالح ، والعمل الصالح هو العمل الذى أو جبه الله أو ندب إليه ، قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة : ١٠٥) ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧) ، ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ (سبأ : ١٣) .

واعتبر الإسلام أن القعود والكسل عن العمل من السلبيات التى تضر بالفرد والمجتمع ، ولذا نهى عن ذلك أشد النهى فى أكثر من آية وحديث .

إن السكوت عن مناصرة الحق وترك الضلال ينفرد بزمام الحياة ينتهى حتما بضربة من القدر لا تبقى ولا تذر:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝ ﴾ (هود) . ولنتدبر الجملة الأخيرة فى الآية ، إنه قال : ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ولم يقل : وأهلها صالحون ؛ لأن الصلاح الشخصى المنزوى بعيدا لا يأسى لضعف الإيمان ، ولا يبالى بهزيمة الخير ، صلاح لا قيمة له ولا خير فيه !! فالتربية القرآنية تتطلب من الفرد أن يكون صالحا مصلحا ، وراشدا مرشدًا .

٥ ـ الواقعية :

وأيضا ، فمنهج القرآن فى تربية الفرد إنما يصل به إلى أن يكون ذلك المؤمن الذى يجده الله ـ عز وجل ـ حيث أمره ، ويفتقده حيث نهاه ، عبدٌ يعمل الصالحات ويتعاون على البر والتقوى ، ولا يتعاون على الإثم والعدوان ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعمل على إعلاء كلمة الله ، ويضحى بكل ما يملك من نفس ونفيس فى سبيل دينه وعزة أمته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ ﴾ (الصف) .

والإنسان المسلم وهو يُربَّى على تلك القيم إنما يعترف له الإسلام بواقعه الذى يعيش فيه ، وما يشتمل عليه هذا الواقع من مطالب مادية يجب أن يستجيب لها الإنسان فى حدود ما شرع الله عز وجل ، بعيدا عن تلك المثالية التى تتطلب الكمال أو تعنيه ، فالكمال لا يكون إلا لله وحده ، أما البشر فيخطئون ويصيبون ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ومما سبق يتبين لنا أهمية تناول آيات القرآن كمنهج تربوى ـ بالمفهوم والسمات التى ذكرناها ، أو بعبارة أخرى : كيف يمكن عرض آيات القرآن بأسلوب ومنهج تربوى يسهّل على القارئ ترجمة هذا القرآن إلى واقع عملى ، اقتداء بالنبى ﷺ الذى كان قرآنا يمشى على الأرض ، وهذا ما جعل الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ يقول : إن السنة هى فهم النبى ﷺ للقرآن ، فهو مرتبط به ارتباطا تاما فى حياته ، فى ظاهره وباطنه . وهذا هو ما نهدف إليه ـ تناول القرآن الكريم تحت هذا العنوان :

« التفسير التربوى للقرآن الكريم »

وإنه لمما تفخر به المكتبة الإسلامية التراث التفسيرى للقرآن ، على تنوع مدارسه ، واختلاف مناهجه ، وهذا التراث قد أثرى حياة المسلمين ، ومضت الأجيال تسعد وترضى وهى تقتطف منه ما تريد ، إلا أنه جدّت شؤون ، وتغيرت أحوال ، وتجددت أفهام ، فكان التفكير فى وضع تفسير يتناسب ونمط سرعة العصر الذى نعيش فيه ، بأن نتناول تفسير الآيات بطريقة ومنهج يعين على المعايشة والتفاعل معها ، تيسيرا على من أراد أن يأخذ نفسه وغيره بالقرآن ، بطريقة ميسرة ، محددة المعالم والأهداف ، وصولا إلى الاستفادات التربوية ، حيث يصل القارئ إلى بغيته بأقل مجهود ، ودونما عناء ، دون الدخول فى قضايا لغوية ، أو مسائل فقهية ، أو مماحكات كلامية أو غير ذلك مما يبعد

الإنسان عن روح القرآن واستنباط المعانى التربوية التى هى مقصود الوحى وإنزال القرآن .

منهجنا فى التفسير :

أما منهجنا فى التفسير فنوضحه فى النقاط التالية :

١ ـ حرصنا على أن نبقى على الشكل المصحفى للقرآن الكريم على طبعته المعروفة بمصحف المدينة المنورة ، وهو بهذا الشكل يجمع بين كونه مصحفا وكونه تفسيرا ، مما يستفاد منه فى القراءة أو الحفظ .

٢ ـ قمنا ببيان معانى المفردات أو الكلمات القرآنية التى يصعب على القارئ غير المتخصص معرفتها ، وبطريقة مختصرة وكافية .

٣ ـ ذكرنا الأهداف الإجرائية لكل مقطع، وذلك بأبعادها الثلاثة المعروفة ؛ المعرفية [١] والوجدانية [٢] والسلوكية [٣] باعتبار أن القرآن يخاطب العقل ، وينمى الوجدان ، ويهذب إلى السلوك ، فنتناول بعضها ـ أو كلها ـ فى نقاط حسب طبيعة الآيات وقبل الدخول فى بيان المحتوى التربوى . وذلك بجعلها فى نقاط حتى يسهل تحصيلها وتذكرها واستدعاؤها دونما عناء .

٤ ـ ذكرنا المحتوى التربوى للآيات ، وهو شرح يتناسب والأهداف التربوية التى نسعى إلى إبرازها وربطها بالواقع ، والتركيز على التناول التربوى دون إسهاب أو تفريط .

وقد حرصنا أن نُضَمِّن هذا التفسير خلاصة التفاسير التى هى أقرب إلى موضوعنا ، ولها اهتمام فى هذا الشأن كثر أو قل ، بحيث يُشَكِّل فى مجمله خلاصة ما حوته هذه التفاسير فى هذا الموضوع ، أمثال « فى ظلال القرآن » لشهيد الدعوة والعقيدة سيد قطب ، « والأساس فى التفسير » للداعية الربانى سعيد حوى ، « ومقاصد القرآن الكريم » للإمام الداعية المجدد حسن البنا ، « وزهرة التفاسير » للإمام محمد أبى زهرة ، وتفسير المنار للشيخ العلامة محمد رشيد رضا ، بالإضافة إلى أمهات كتب التفسير أمثال : تفسير الطبرى ، وتفسير القرطبى ، وتفسير ابن كثير وغيرها .

---

(١) الأهداف المعرفية : هى التى تبدأ بأفعال : يعرف ، يدرك ، يفهم ونحوها .

(٢) الأهداف الوجدانية : هى التى تبدأ بأفعال : يحب ، يؤمن ، يعتقد ، ونحوها .

(٣) الأهداف السلوكية : هى التى تبدأ عامة بأفعال : يعمل ، يكسب ، يسلك ، ونحوها .

٥ ـ وأخيرا قمنا ببيان ما ترشد إليه الآيات تربويا ، وذلك فى نقاط واضحة محددة ، يستطيع القارئ أن يضعها مستهدفا له خلال فترة زمنية ليقوم بتحقيقها فى واقعه الحياتى ، وتكون مقياسا على مدى عمله بما تَعلَّمه من القرآن ، اقتداء بما كان عليه سلفنا الصالح صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا لا يتجاوزون العشر آيات حتى يتعلموها ويعملوا بما فيها ، فتعلموا العلم والعمل .

والله نسأل أن ينفع بهذا العمل الذى اجتهدنا أن تكون الوجهة فيه خالصة له عز وجل، وأن يعفو عن كل تقصير لا يخلو عنه بشر ، وما توفيقنا إلا بالله ، والحمد لله رب العالمين، وصلى اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين[1] .

المؤلف

(١) استفدنا فى هذه المقدمة من المراجع التالية :

ـ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

ـ دراسات قرآنية لمحمد قطب .

ـ زهرة التفاسير لأبى زهرة .

ـ التربية الإسلامية فى سورة المائدة للدكتور على عبد الحليم محمود .

ـ كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالى .

obeikandl.com